التذكار المئوي لرحلة لامرتين الى الشرق

لامرتين في لبنان وسورية

تموز ١٨٣٢ — نيسان ١٨٣٣

بقلم اقناطيوس سركيس ق. ب.

٥

(تتمة)

امثلة من كتاب الرحلة

١ بيانه كما رآه لامرتين

نجد القطعة التالية في كثير من المنتخبات الفرنسية، تحت عنوان «منزل لامرتين في بيروت». ولكنها تحتوي، فضلاً عن وصف هذا المنزل، وصفاً شعرياً دقيقاً لجميع المناظر الطبيعية التي يمكن للانسان ان يشاهدها من بيروت.

اما منزل لامرتين الذي يتكلم عنه هنا، فلا يمكن تعيين مكانه بالتحقيق. غير ان المشهور بين البيروتيين انه استأجر اولاً بيتاً في الموضع المعروف اليوم بحي مار مارون، شمالي كلية الآباء اليسوعيين. وهو امر معقول، اذا عرفنا ان هذه الناحية لم تكن، قبل مئة سنة، داخلة في حدود المدينة؛ اذ ان اسوار بيروت كانت تمتد الى الجهة الغربية من ساحة البرج ودار الحكومة؛ وبينها وبين شارع مار مارون مسافة تقارب العشر الدقائق، كما يشير الى ذلك لامرتين.

ولما اشتدَّ المرض على ابنته جوليا، غادر هذا المكان اذ قيل له ان مناخ الاشرفية انشط واوفق؛ واستأجر بيتاً تضمه التقاليد في البستان الذي يملكه الآباء اللازاريون اليوم.

واليك ما قال لامرتين:

لا اذكر شيئاً الذ من نهوضنا باكراً، بعد الليلة الاولى التي قضيناها بمنزلنا في بيروت. فقد تناولنا طعام الفطور على اوسع سطوحه، واخذنا نتعرَّف بالنظر الى الامكنة المجاورة.

ان منزلنا يبعد مسافة عشر دقائق عن المدينة. اما الطريق المؤدية اليه،

فشعب ضيقة ، تظللها اشجار « الند »[1] (*aloès*) الكبيرة ، المتدلية الاغصان فوق رؤوس المارة ، تقطع بعض القناطر القديمة الايام ، وبرجاً عظيماً[2] ، بناه فخر الدين ، امير الدروز . وهذا البرج يستخدمه اليوم بعض جنود ابراهيم باشا كمرصد يرقبون منه جميع السهول المجاورة . ثم تنساب طريقنا بين اشجار التوت ، وتصل الى مجموعة بيوت وطيئة تحيط بها غابات الليمون والبرتقال ، فتحجبها عن الانظار . ليس لهذه البيوت في بنائها نسق هندسي واحد ، والمنزل الذي في وسطها يعلوها كبرج لطيف . اما سطوحها فتصلة بعضها بالبعض الآخر بواسطة الواح خشبية تجعل منها مجموعاً انيقاً ، صالحاً للتفريج عن ضيوف غرباء ، قضوا اياماً بلياليها على سطح مركب تجاري.

وعلى بضع مئة قدم من منزلنا هذا ، يتقدم البحر حتى يدخل في الارض ؛ فيبرأى لنا من فوق جنائن الليمون و« الند » ، كبحيرة جميلة ، او كنهر ، لا يرى منه الا جانب واحد ، وقد ارست فيه المراكب العربية متهادية برخاء على تموجاته الخفيفة.

فاذا ارتقينا الى السطح الاعلى ، تحولت هذه البحيرة الى خليج واسع ، تحدّه ، من جهة ، قصور بيروت المغربية (*mauresque*) ومن الجهة الثانية سلسلة الجبال المترامية نحو طرابلس ، كاسوار قائمة . لكن الافق يمتدّ امامنا باكثر اتساعاً ؛ فهو يبتدئ بالامتداد فوق سهول احسنت حراثتها ، واكتست ارضها بردة من الاشجار المثمرة ، وقامت بينها ، هنا وهناك ، بيوت تشبه منزلنا ، ترتفع سطوحها كاشرعة بيضاء على هذا الارخبيل الاخضر.

ثم يضيق الافق في غضون هضبة طويلة يرتفع في قمتها دير الروم[3] بجدرانه

---

١) رضنا كلمة « الند » (*aloès*) بين مزدوجين لان هذا الشجر ليس مما تنبته بلادنا . ولعل الصواب انه العبار الذي لا يزال سياجاً لكثير من الطرقات في ضواحي بيروت .

٢) كان هذا البرج في الزمن الغابر من السرايا ، تقوم اليوم في موضعه بناية فخمة على الطراز الحديث . ومن هذا البرج اشتقّ اسم ساحة البرج.

٣) لا نعرف بالتحقيق اي دير هو هذا الذي يتكلم عنه لامرتين . لكن في الجهة التي يصفها ديرين: احدهما للرهبنة الباسيلية الحلبية في سوق الغرب تحت عاليه ؛ والثاني للرهبنة

البيضاء وقبيبه الزرقاء . ثم ، على بعد قليل ، تنتصب اشجار الصنوبر حتى تخيم فوق قبب هذا الدير . اما الهضبة نفسها فتنحدر بتدرّج كانها سلم عظيمة بسطت درجاتها على الصخور الجبارة او فرشت باحراج التوت والزيتون ؛ وقد تقدّم البحر يفصل اقدامها باحتشام ودلال ، ثم لم يلبث ان ابتعد تاركاً المجال لسهول اوسع ، يمرّ في وسطها نهر يتململ طويلاً بين اشجار السنديان ، قبل ان يصل الى مصبّه في الخليج .

اما الجبال فلا ترتفع دفعة واحدة ؛ لكنها تبتدئ بهضاب كبيرة كانها كوم عظيمة ، بعضها مدوّر ، وبعضها يكاد يكون مربعاً ، يتوّج رؤوسها قليل من الخضرة ؛ ويعلو كلًّا منها اما دير ، واما قرية صغيرة تنعكس عليها اشعة الشمس فتجذب الانظار ؛ بينما الهضاب تلمع كالذهب الوهاج .

وفوق هذه الروابي تأخذ درجات جبل لبنان بالاتساع . فهناك انجاد تمتد ميلًا او ميلين ، مجوّفة ، مسننة الرؤوس ، كثيرة الاودية ، عميقة مجاري المياه ؛ فيها من المهاوي المظلمة ما يضيع فيه النظر . وبعد هذه الانجاد ، ترتفع الجبال ارتفاعاً يكاد يكون عمودياً . وهنا وهناك يشاهد الناظر بقعاً سوداء تمثل له احراج الارز والصنوبر ، وبعض الاديرة المنيعة في انفرادها ، او بعض القرى المجهولة ، القائمة على ضفاف المهاوي . وفي القمة العليا من هذه السلسلة الثانية ، تكثف الاشجار ويعظم حجمها ، حتى كانها جنة شعر منفردة على جبهة صماء ، تقدر ان تميز من هنا رؤوسها المسننة ، الغير المتساوية ، البادية كشرفات على سطوح القصور .

ووراء هذه السلسلة ، تظهر اخيراً جبال لبنان الحقيقي . لا يمكنني ان اميز هل ارتفاعها اقرب الى العمودية ام الى الافقية ؛ وهل هي قرعاء ام مدرجة ، لان المسافة بعيدة بيننا ؛ ولان منحدراتها تمتزج بالجوّ الشفّاف كانها جزء منه ؛ فلا يرى الناظر الا تموّجات نور الشمس المستديرة ، محيطة بها ، وقد ارتفعت

الباسيلية الحناوية فوق قرية كفرشيما ، مقابل بيدا . واذا كان لا بد من الاختيار ، فانا افضل تعيين الثاني ، فالموقع والوصف اللذان نراهما في النص أكثر انطباقاً عليه .

قممها المثلثة فاتصلت بسحب الصباح الارجوانية ، سابحةً كانها جزر منيعة في الفضاء اللامتناهي.

واذا نزل النظر من هذا الافق السني ، لم يجد مكاناً يقف عليه الا اشجار النخيل المنتشرة في الارياف ، قرب بيوت الاعراب ؛ او غابات الصنوبر الخضراء ، المزروعة باقات منفردة في السهول ؛ او اطراف الآكام وسياجات الصبار ، او غير ذلك من نباتات تتساقط اوراقها متثاقلة كانها قطع زخرفية من الحجر على الحيطان الواطئة . وهذه الحيطان نفسها مكسوة بالطحلب المزهر والحلبلاب الارضي والكرم البري والزهور المختلفة الالوان والاشكال . ولقد تكاثرت هذه الاعشاب على الجدران ، حتى لا تستطيع ان تميز اهي مبنية من الحجارة ام من النبات ؛ وحتى كأن هذه البنايات حصون من عشب وازهار.

واخيراً ، على مقربة من مقرلنا ، وتحت انظارنا ، قامت ثلاثة بيوت نظير بيتنا تكاد تكون مغطّاة باشجار البرتقال المثقلة بالازهار والثمار . وفيها من المشاهد الخلابة التي تفيض بالحياة في هذه البقاع الجميلة ما يأخذ الفؤاد . وعلى سطوح هذه البيوت يجلس بعض الاعراب ، فوق الحصر ، يدخنون ، وفي النوافذ بعض نساء يتطارلن بأعناقهن ليتأملننا ، ثم يختبئن متى وجهنا انظارنا اليهنّ .

وعلى مقربة من سطحنا عائلتان من العرب تتناولان الطعام في ظل دلبة صغيرة ، على عتبة بيتها . وعلى بضع اقدام من هناك ، صبيتان سوريتان ، بارعتا الجمال ، تلبسان اثوابهما في الهواء الطلق ، وتزينان شعرهما بالزهور البيضاء والحمراء . وان لاحداهما شعراً بلغ من طوله وكثافته ان غطى جسمها بكامله ، كما تغطي الصفصافة المستحية اغصانها من كل جانب . ولكنها تهزّ احياناً هذه الذؤابة الكثيفة ، فيبين جبينها الجميل وتبرق عيناها اللامعتان بسرور الطفولة الساذج فتخرقان هنيهة هذا الحجاب الطبيعي لتشتتا باعجابنا بجمالها . ولقد رميت اليها بقبضة من الفرازي [1] ، وهي قطع صغيرة من العملة

(١) جمع الفازي : لقب من كان يشهر حرباً من سلاطين تركية . ثم ضرب من النقود العثمانية ، وهو المقصود

الذهبية ، تنظمها النساء السوريات بخيطٍ من حرير ، فيصنعن منها عقودًا واساور . فجمعت يديها الى رأسها تشكرًا ، ودخلت الغرفة السفلى لتري ما نالته لامها واختها .

٢ الحياة اللبنانية في القرن الماضي
كما وصفها لامرتين

كتب لامرتين القطعة التالية في بيروت في شهر كانون الاول من سنة ١٨٣٢ ؛ يصف فيها حياة الشعب اللبناني كما رآها . وهي في الحق تنطبق ليس على لبنان فحسب بل على اكثر البلدان العربية ؛ وليس على القرن الماضي فحسب ، بل ان كثيرًا مما فيها لم يزل معمولًا به في كثير من مدن وقرى الداخلية . ونحن ننقلها هنا تلخيصًا ، تاركين ما لا فائدة فيه .

ولكيلا يتعب القارئ في فهم الالفاظ ، فاننا نشير منذ الآن الى ان كل مرة يذكر الكاتب كلمة رومي او سوري او عربي فانما يقصد طائفة الروم الملكيين من ارثذكس او كاثوليك ، او الموارنة ، او الاسلام اجمالًا .

والآن فلنسمع لامرتين يتكلم :

اذا ضربنا صفحاً عن بعض هبّات للريح فوق البحر ، وبعض ساعات مطر في نصف النهار ، فان المناخ هنا يشبه مناخ فرنسة في شهر ايار . لا تكاد الامطار تتساقط حتى تظهر الارض بحلّة ربيع جديد ، وتتغطى السهول والبطاح ، في قليل من الايام ، بالنباتات المختلفة ، من زروع واعشاب وزهور . . . وتكتسي اشجار التوت ، حول البيوت ، باوراقها الغضّة الخضراء . فتصبح كحرج كثيف لا تخرقه اشعة الشمس . . . هنا وهناك ، بعض المنازل منتشرة في السهول ، كانها مراكب سابحة على هذا الاوقيانوس الاخضر . والنساء اللبنانيات ، في اثوابهنّ البهية الثمينة ، كانهن ملكات يتنشقن هواء الجنائن الطر . وقد جلس اكثرهنّ في ظل توتة او تينة يطرزن الطنافس الصوفية الفاقعة الالوان ؛ بينما غيرهنّ يساعدن الرجال في غزل الحرير او حياكته .

ان سكان لبنان ، من روم وسوريين وعرب ، ليسوا على شيء من البربرية . فهم اعلى ثقافة من فلاحي اريافنا . كلهم يقرأون ويكتبون . وكلهم يعرفون لغتين : العربية واليونانية او العربية والسريانية . اما طباعهم

فدمثة هادئة ، يزينها الجد في العمل والقناعة في المعيشة.

يقضون الاسبوع في اشغال الحقول او في العناية بالحرير ؛ ويستريحون يوم الاحد من اتعابهم . ففي الصباح ، يحضرون مع عائلاتهم الفروض الدينية الفخمة في الكنائس الرومية او السريانية . ثم يعودون الى منازلهم فيتناولون طعاماً افخر بقليل من طعام الايام الاعتيادية.

وبعد الغداء يخرج النساء والبنات متبرجات باثمن اثوابهنّ ، وقد عقفن شعورهنّ ونثرن فيها ازهار الليمون والقرنفل والمنثور . فيجلسن على ابواب المنازل يتحدثن مع الجارات والصديقات . لكن ليس في مقدرة القلم ان يرسم منظر هذه الزرافات بما هي عليه من بساطة طبيعية ، واثواب ثمينة فاخرة ، وجمال باهر جذّاب . اني لاشاهد هنا كل يوم وجوه نساء وفتيات لم يسعد رفائيل بمثلها حتى في احلام مخيلته الفنية . وكثيراً ما التقي بهنّ على طريق العين ، حاملات جرة الماء على كتفهنّ ، عاريات الساقين الا من الخلاخل الفضية. ان جمالهنّ لاسمى من الجمال الاغريقي والروماني ، اذ تزينه فيهنّ سذاجة فطرية فتانة وبساطة في الظواهر خلابة.

. . .

اما الرجال والصبيان فيجتمعون نهار الاحد تحت سنديانة كبيرة قرب احد الينابيع ، حيث يقضون النهار ، جالسين على الحصر يقصون القصص العجيبة . وبين حين وآخر يتناولون فنجان القهوة التقليدي ، او قدحاً من الماء البارد .

وقد يذهب البعض الى اعالي الآكام ، فيجتمعون هناك في ظل جفنة او زيتونة من كرم احدهم ، مسرحين الابصار كانهم يتنعمون بما حولهم من المناظر الجميلة ، كعظمة البحر وصفاء السماء ، وتغريد الاطيار[1] . او قل انهم يتنعمون بعذوبة نفسهم الفطرية وطهارتهم الساذجة . الامر الذي اضاعه الشعب عندنا في اوربة ، وسار وراء المسكرات والمنكرات .

---

١) يظهر ان لامرتين لم يحضر شيئاً من اجتماعات الشبان اللبنانيين ، ولاسيما القبضايات منهم ، حول اجران الحجر الثقيلة ، يتسرّنون ويتفاخرون برفعها.

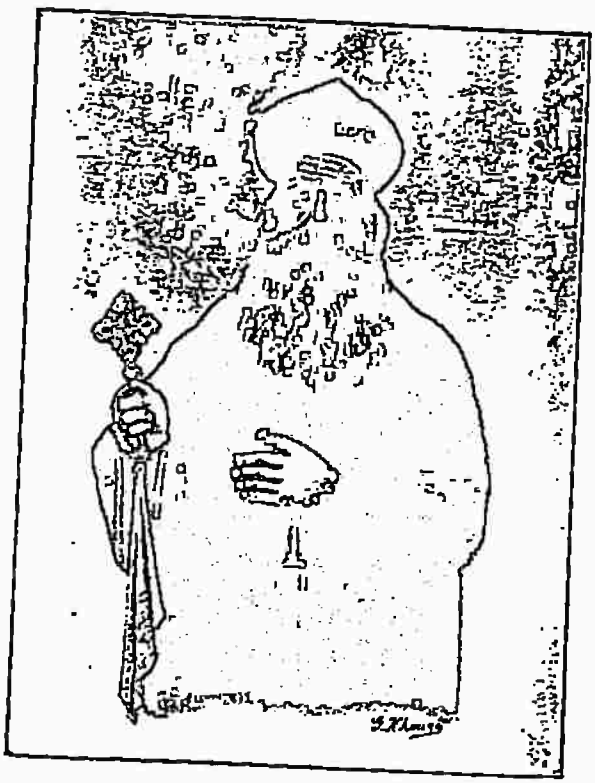

اغناطيوس نعمة الله الاول

بطريرك السريان الانطاكي († ١٥٩٠)